تعقيب على بحث
«الانتماء من العزلة»

بقلم: رجاء النقاش

في هذا البحث الذي قدمه الدكتور إبراهيم عبد الله غلوم كثير من الجوانب الايجابية، وفيه ما يدعونا الى تسجيل بعض الملاحظات. أما الإيجابيات فأهمها أن الموضوع نفسه خصب وبالغ الجدية والعمق، ولا أدري ما إذا كان الدكتور غلوم هو الذي اختار الموضوع أو أن اللجنة التي أعدت لهذا الملتقى الأدبي هي التي اختارته، وفي الحالين فإن الإقبال على دراسة هذا الموضوع هو أمر بالغ التوفيق، والموضوع هو علاقة القصة القصيرة بالهوية القومية في الخليج العربي، فهو موضوع أدبي يحتاج إلى ثقافة نقدية واسعة، وهو من جانب آخر موضوع سياسي يحتاج إلى معرفة دقيقة بتاريخ الخليج العربي، وما حدث فيه من تطورات وطنية واجتماعية كبيرة في العصر الحديث. . . ومثل هذا الموضوع يحتاج إلى باحث يمتلك امتلاكاً قوياً لثلاث أدوات: الأداة الأولى هي المعرفة النظرية بفن القصة القصيرة، والأداة الثانية هي المعرفة بتاريخ هذا الفن في المجتمع الذي يتحدث عنه الباحث، والأداة الثالثة هي المعرفة بتاريخ المجتمع وما تعرض له من تطورات مختلفة.

والبحث الذي نتعرض له اليوم يكشف لنا بوضوح أن الدكتور غلوم قد امتلك الكثير من هذه الأدوات، ولولا امتلاكه لهذه الأدوات لما استطاع أن يقدم هذه الصورة الشاملة الحية الدقيقة للعلاقة بين فن القصة القصيرة ومجتمعات الخليج الستة.

ومن أخطر الأمور في مثل هذا النوع من الدراسات ذات الأبعاد المتعددة، أن يهتز ميزان الباحث فلا يستطيع تحقيق التوازن بين الجوانب الفنية للقضية المطروحة والجوانب السياسية والاجتماعية، فكثيراً ما يسقط الباحثون في مثل هذه الدراسات في موقف بالغ الخطأ والضرر، وذلك عندما ينظرون الى الفن على أنه مجرد وثيقة تاريخية تدل على عصرها بما تشير إليه من أحداث وأفكار، وهنا يفقد الفن قيمته الخاصة به، وتصبح القصة والقصيدة والرواية مثلها مثل المقالة الصحفية أو البيان السياسي أو خطابات الحكام والمسئولين أو نصوص القوانين والمعاهدات وما إلى ذلك.

ولكن الدكتور غلوم قد تنبَّه تماماً إلى هذا المأزق الذي يقع فيه الكثيرون من الباحثين عندما يتحدثون عن علاقة الفن بالمجتمع، فينسون الطبيعة الخاصة للفن، ويركزون جهودهم على التقاط أي إشارة في النص الفني تدل على حادث تاريخي أو سياسي أو اجتماعي، وبذلك يصعب تماماً أن يكون هناك أي تمييز بين فن جيد وفن رديء وفن آخر لا علاقة له بالفن من قريب أو بعيد. لقد انتبه الدكتور غلوم إلى هذه الحقيقة الأساسية، واستطاع أن يقيم التوازن بين نظرته الفنية النقدية ونظرته السياسية التاريخية. وهذه إيجابية واضحة في البحث الذي بين يدينا، فقد كان الباحث على الدوام واعياً بجوانب القوة والضعف في الأعمال القصصية التي يتعرض لها، وكان على الدوام شديد اليقظة لما ينبغي أن يكون عليه ميزان النقد من استقامة واعتدال، فلم تكن النزعة القومية الصحيحة عنده كافية لتبرير أي ضعف فني، وهذا الموقف دليل على صحة وعيه النقدي، وسلامة ذوقه الفني، وأصالة ثقافته الأدبية.

هذه بعض إيجابيات البحث الذي بين يدينا وهي وحدها كفيلة بأن تضعه في مكان بارز من الدراسات الجادة الممتازة.

ولا أريد أن أستطرد أكثر من ذلك في الإشادة بالبحث وصاحبه، رغم أنه يستحق ذلك وأكثر منه، ولكنني أكتفي بما أشرت إليه من إيجابيات ليست غريبة على الدكتور غلوم، فله دراسات كثيرة مرموقة ومعروفة في الجمال الأدبي، وأحب بعد ذلك أن أدخل إلى مناطق الخلاف بين الباحث الكبير وبيني، فمناطق الخلاف هي التي تقودنا في نهاية الأمر إلى الصورة المثالية الصحيحة للقضية المطروحة.

ولعلمي بأن المساحة الزمنية المتاحة للتعليق على هذا البحث الهام هي مساحة محدودة، فسوف ألجأ إلى التركيز الشديد في تسجيل ملاحظاتي المختلفة، فليس المهم هو أن نتوسع في الملاحظات ونلجأ الى التفصيل الشديد فيها، ولكن المهم في مثل هذا الملتقى الفكري الرفيع ان تكون الأفكار محددة وجوهرية.

وتبدأ ملاحظاتي على هذا البحث من العنوان، وأقف بالتحديد عند عبارة «الانتماء من العزلة» التي كانت أساساً لعنوان البحث، والحق أنني أجدها عبارة شديدة الغموض، ينقصها التحديد والاستقامة اللغوية الدقيقة، وقد حاولت خلال قراءتي المتأنية والمتكررة أن أفهم معنى قاطعاً لهذا العنوان فلم أستطع أبداً أن أصل إلى شيء يقيني. فقد كان بالإمكان أن يكون العنوان هو الانتماء والعزلة، أو من العزلة إلى الانتماء، وكان يمكن اختيار عبارة أخرى مستقيمة ذات دلالة واضحة، ولكن الباحث الكبير آثر هذا العنوان الغريب القلق، وأعوذ بالدكتور غلوم أن يكون من هؤلاء الذين يحبون إرهاب القارىء إرهاباً لغوياً من البداية، حتى يبقى القارىء خاشعاً خائفاً على مدى رحلته مع البحث، فذلك أسلوب عرفناه في بعض الأقلام في حركتنا الثقافية الحديثة، وقد أثبتت التجارب أنه أسلوب لا يكسب لصاحبه أنصاراً حقيقيين، لأنه أسلوب أقرب إلى اصطناع التعمق منه إلى أداء رسالة الفكر على وجهها الصحيح.

إنني لم أسترح إلى هذا العنوان الغريب ولم أستطع هضمه، وبصراحة أكثر فإنني لم أستطع فهمه فهماً دقيقاً منضبطاً، وقد يكون فهمي محدوداً، ولكن الذي لا شك فيه أن العنوان مغلق وفيه قدر من الصدمة اللغوية والفكرية، رغم أن العنوان عادة يكون مفتاحاً يفتح أمام العقول أبواب الدخول إلى العالم الفكري ولا يغلق تلك الأبواب.

ولو كان الأمر قاصراً على العنوان وما فيه من غموض وتعقيد لهان الأمر، ولكنني لاحظت أن الدكتور غلوم كثيراً ما كان يستخدم هذا الأسلوب الصعب المعقد في مناطق عديدة من بحثه. وهو أمر لم أجد له سبباً أو مبرراً معقولاً، لا في تاريخ الباحث نفسه وسابق تجاربه في الدراسات الأدبية، ولا في واقع الموضوع المطروح، لقد سيطر التجريد الذهني الصعب على كثير من عبارات الباحث، حتى أصبح فهم بعض هذه العبارات أمراً شاقاً جداً لا يتحقق إلا بعد عرق كثير يسيل من جبهة العقل عند القارىء، ويكفي أن أشير هنا إلى الفقرة الأولى من المقدمة، والتي وصلت الجملة الواحدة فيها إلى ستة سطور متتابعة ومكتوبة بالآلة الكاتبة، ليس فيها نقطة ولا فاصلة ولا أي علامة أخرى من علامات الوقف تتيح لنفس القارىء أن يتردد بصورة طبيعية، وينتقل من المعنى إلى المعنى الذي يليه بنظام ومنطق.

ولن أقرأ عليكم هذه الفقرة فالبحث أمامكم ويمكن الرجوع إليه، ويكفي هنا أن أقدم عبارة واحدة يقول فيها الباحث الكبير: «... إنها مثل وقيم لا تتشكل بصورة يومية في مجرى الزمن كما تتشكل بواسطة الهموم والأفكار الصغيرة المتدافعة في نطاق الخبرة الذاتية للشخصية».

والحق أنني وجدت صعوبة بالغة في فهم هذه العبارة وأمثالها، وأنا من المولعين بالوضوح والتحديد في التعبير والتفكير عند النقاد والباحثين، لأنني أصبحت أخشى على العقل العربي من عاصفة الجليد والتجريد، حيث تختفي المعاني والأفكار وراء تعقيدات تعبيرية تضر ولا تفيد، وتضلل بالرؤية الفكرية ولا تهديها إلى يقين، ولعل الدكتور غلوم أراد أن يكافىء المشاركين في هذه الندوة على ذكائهم وسعة علمهم، ولكن مكافأته في الحقيقة كانت أشد من أي عقاب!... واترك هذه النقطة لأتوقف أمام خلاف نظري أساسي بين الباحث الكبير وبيني، وذلك عندما يقول إن دراسته في تحديدها النظري تفترض وجود جفوة طبيعية بين الموضوعات القومية العامة وشكل القصة القصيرة.

ولست أدري كيف توصل الدكتور غلوم إلى وجود هذه الجفوة، وكيف اعتبر وجود هذه الجفوة المفترضة أمراً مسلماً به على هذه الصورة.

إنني أعترض على هذه الفكرة اعتراضاً كاملاً، وأرى أن فن القصة القصيرة لا يتعارض في شكله ومضمونه مع التعبير عن الموضوعات القومية الكبرى، وقبل أن أتحدث عن الجانب النظري في هذه القضية أتساءل: هل عجز فن القصة القصيرة عن التعبير عن الشخصية القومية الروسية عند تشيكوف؟ وهل عجز هذا الفن عن التعبير عن الشخصية القومية الفلسطينية عند سميرة عزام وغسان كنفاني؟ وهل عجز هذا الفن عن التعبير عن الشخصية القومية في مصر عند تيمور ومحمود البدوي ويحيى حقي ويوسف ادريس وعند عشرات من أبناء الجيل الجديد؟... الإجابة الصحيحة أن فن القصة القصيرة لا يعاني أبداً

بطبيعته من وجود جفوة بينه وبين الموضوعات القومية، ولا أدري من أين جاء الدكتور غلوم بهذا الفرض النظري الذي لا يقوم على أي أساس، وهو فرض ما أنزل به الأدب والنقد من سلطان.

ويساورني هاجس كبير بأن الخطأ هنا نابع من تعريف الدكتور غلوم للموضوع القومي. ويبدو أنه يقف بتعريفه لهذا الموضوع عند الحدود السياسية، فالموضوع القومي عنده ـ فيما أتصور ـ هو الحديث المباشر عن الوطن وأحواله السياسية وصراعاته المختلفة مع أعدائه وما إلى ذلك. ولو كان هذا هو الوجه الوحيد للموضوع القومي، لكان معنى ذلك أن الموضوع القومي لا يصلح إلا مادة للفن الرديء في القصة القصيرة أو غيرها من الفنون، ذلك لأن الموضوع القومي بهذا المعنى السياسي لا يكون إلا مادة للأدب المباشر، الذي هو في كل المقاييس أدب من الدرجة الثانية أو الثالثة.

والصحيح في رأيي ـ وقد أكون مخطئاً ولكن هذا هو اعتقادي الأدبي ـ أن كل ما يصور الإنسان في مشاعره الصادقة في بيئة محددة وعصر محدد هو تصوير للشخصية القومية، فطريقة التعامل بين المرأة والرجل في أمور الحب والعاطفة، وطريقة الحديث والغناء، وطريقة التصرف مع الأبناء والآباء والأصدقاء والأعداء، بل وكل الأزمات الذاتية الخاصة التي يتعرض لها الإنسان ويصورها... كل هذه التفاصيل تطرح في النهاية ملامح أساسية للشخصية القومية كما يصورها الفن. ولذلك فإن الافتراض الذي وضعه الدكتور غلوم لوجود فجوة أساسية بين القصة القصيرة والموضوعات القومية لا يبدو افتراضاً مقنعاً على الإطلاق.

وأريد أن أضرب مثلاً سريعاً من واقع موضوعنا الأساسي وهو القصة القصيرة في مجتمع الخليج العربي، وهذا المثل هو القصة القصيرة كما يكتبها عدد من كاتبات الخليج الموهوبات. إن هذه القصص قد لا تمس الموضوعات القومية بصورة مباشرة، بل هي في معظمها حديث عن مشكلات نفسية أو اجتماعية تعانيها المرأة في مجتمع الخليج. فهل يمكن أن يقال إن قصص المرأة في الخليج ليس لها علاقة بالموضوع القومي؟.. إن ذلك لا يكون أبداً إنصافاً للحقيقة ولا وضعها لها في موضعها الصحيح. أن تكتب المرأة الخليجية قصصاً قصيرة تتميز بالنضج والموهبة التي نجدها عند عدد من كاتبات الخليج، فهو علامة اساسية على تطور الشخصية القومية في الخليج، وعلى محاولة المرأة أن تخرج من الإطار التقليدي الذي كان موضوعاً لها ومفروضاً عليها في المجتمع، وأن تحاول هذه المرأة الخليجية من خلال أدبها أن تأخذ حقها المشروع في التعبير عن مشاعرها وتصوير موقفها من الحياة والإنسان والمجتمع. إن أدب المرأة الخليجية هنا ولو لم يمس الموضوع القومي المباشر بأي صورة، هو فن متصل أشد الاتصال ومعبّر أصدق التعبير عن الشخصية القومية الجديدة عندما نتحدث أي حديث منصف دقيق عن القصة القصيرة والشخصية القومية للخليج العربي، فالمرأة لم يكن لها في الجيل الخليجي السابق، ووجودها الآن وبهذه القوة والروح القومية المتمردة هو، علامة من علامات التطور والقومي في شخصية الخليج.

-انتقل بعد ذلك إلى نقد للبحث من زاوية أخرى هي زاوية ما لم يتعرض له البحث وكان ينبغي أن يتعرض له.

فالبحث لم يتعرض لقضية أساسية في فن القصة القصيرة وهي قضية الحوار بين العامية والفصحى، وما يثور حول هذه القضية من جدل شديد، وقد كنت أتمنى أن يحدثنا الباحث عن الاختيار الذي استقر عليه كتّاب القصة في الخليج ومبررات هذا الاختيار.

والذي ألاحظه أن الاختيار الغالب في القصة العربية الخليجية هو حوار بالفصحى وهذا عندي من أكبر دلائل الاختيار القومي الايجابي المتمكن من ضمير الكاتب العربي في الخليج، والذي يشعر في أعماقه بأنه يكتب لأمة ينتمي إليها ويمتد وجودها من الخليج إلى المحيط.

وهناك بالطبع من اختاروا الحوار بالعامية ومثل هذا الاختيار له مبرراته عند أصحابه وقد كنت أتمنى أن يلقي لنا الباحث ضوءاً على هذه المبررات.

ومن الموضوعات التي كنت أود أن يعالجها الباحث موضوع المؤثرات الثقافية الأساسية عند كتاب القصة في الخليج. ومثل هذه المؤثرات كانت سوف تكشف لنا بعض الملامح الأساسية للشخصية القومية كما صورتها القصة القصيرة في الخليج.

وفي ظني أن المؤثرين الرئيسين في القصة القصيرة عند كتّاب الخليج هما: القصة القصيرة في مصر ثم الأدب الإنجليزي. وهذا يختلف عما نجده في أدب المغرب العربي من تأثير للقصة العربية في مصر وتأثير للأدب الفرنسي.

وهذه المؤثرات يمكن بتحليلها الوصول إلى كثير من الملامح القومية الخاصة للقصة القصيرة في الخليج، ولكن الباحث الكبير تجاهل هذه النقطة تماماً، وكأن القصة القصيرة في الخليج قد ظهرت من فراغ وعاشت في فراغ.

والموضوع الثالث الذي كنت أرجو أن يلقي عليه الباحث ضوءاً كاشفاً هو موضوع اختلاف البيئات في الخليج وما أدى إليه ذلك من تحديد للمدارس الأدبية في مجال القصة القصيرة.

من ذلك انتشار اتجاه الواقعية الاجتماعية في القصة القصيرة في البحرين، وجنوح كاتب القصة القصيرة في الكويت إلى التعبير عن الهموم القومية أكثر من سواه. والخلافات المتصلة بالبيئة كانت جديرة على العموم بقدر أوفر من الشرح والتفسير.

ثم لا أدري لماذا لم يهتم الدكتور غلوم بالقصص القصيرة التي كتبها بعض الأدباء العرب ممن عاشوا بعض الوقت في الخليج واستوحوا منه مادة قصصهم.

وأخيراً أود أن أسجل عدداً من الملاحظات السريعة:

١ ـ في صفحة ٨ من البحث يرد اسمان هما:

أحمد السباعي ومحمد سعيد العامودي مرة على أنهما من السعودية، ومرة أخرى على أنهما من البحرين، ومن الضروري تصحيح ذلك أو تفسير هذا الازدواج بالنسبة للبلد الخليجي الذي ينتسب إليه الكاتبان.

٢ ـ في صفحة ١١ يتحدث الباحث عن «احتكاك مجتمع مدينة الحجاز بمجتمع مدينة القاهرة» والذي نعرفه أن الحجاز ليس مدينة ولكنه منطقة كاملة فيها العديد من المدن الهامة.

٣ ـ في صفحة ٢٠ يتحدث الباحث عن «الوحدة العربية التامة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٧» والصحيح أن هذه الوحدة قامت سنة ١٩٥٨.

٤ ـ يستخدم الباحث كلمة «ثيم» و«ثيمات» عدة مرات. ولا اعتراض على استخدام الكلمات الأجنبية في سياق البحث العربي إذا كانت هذه الكلمات من المصطلحات التي لا ترجمة لها، أما إذا كانت هذه الكلمات لها مقابل دقيق باللغة العربية فلماذا نلجأ إلى استخدامها بهذه الصورة؟... وكلمة «ثيم» ليست اصطلاحاً فنياً، ولكنها لفظة تعني الموضوع أو المادة التي يستخدمها الفنان، فلا مبرر لوجود هذه الكلمة في سياق البحث، مع أن المقابل العربي الدقيق قائم بين أيدينا وميسور.

كما بدأت تعقيبي بتحية الباحث الكبير فإني أنهيه بتكرار هذه التحية وتأكيدها فالجهد المبذول في هذا البحث، والإلمام الواسع فيه بحركة القصة القصيرة في الخليج فنّا وتفكيراً، والتحليل الدقيق للنماذج التي اختارها الباحث والمعرفة الواسعة بتاريخ المجتمع وتاريخ الفن القصصي، كل هذه العناصر تجعل من البحث عملاً كبيراً يستحق الإعجاب والتقدير ولا يقلل منه أبداً تلك الملاحظات التي سجلت فيها عدداً من جوانب الاختلاف بين الباحث الكبير وبيني.